

تفسير ابن كثير

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدا وعمدا وهم يعرفونه ويذكرونه فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى : { وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون } وقال تعالى : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى : { أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير } وقال تبارك وتعالى : { وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا } إلى أن قال { وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل } وفي الصحيحين [عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال للصلاة على وقتها قلت : ثم أي ؟ قال بر الوالدين قلت : ثم أي ؟ قال الجهاد في سبيل الله] ولهذا جاء في الحديث الصحيح [أن رجلا قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال أمك قال : ثم من ؟ قال أمك قال : ثم من ؟ قال : أباك ؟ ثم أدناك ثم أدناك] وقوله تعالى : { لا تعبدون إلا الله } قال الزمخشري خبر بمعنى الطلب وهو أكد وقيل كان أصله { أن لا تعبدوا إلا الله } ونقل من قرأها من السلف فحذفت أن فارتفع وحكي عن أبي وابن مسعود أنهما قرآها { لا تعبدوا إلا الله } ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه قال : واختاره الكسائي والفراء قال { واليتامى } وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الأباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحا في قوله { واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا } الآية وقوله تعالى { وقولوا للناس حسنا } أي كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى { وقولوا للناس حسنا } فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس : حسنا كما قال الله وهو كل خلق حسن رضى الله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا أبو عامر الخزاز عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر هـ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [لا تحقرن من المعروف شيئا وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق] وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وصححه من حديث أبي عامر الخزاز واسمه صالح بن رستم به وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس : حسنا بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ثم أكد الأمر بعبادته

والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال { وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة } وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله { واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً } فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها و الحمد والمنة ومن النقول الغربية ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبي حدثنا محمد بن خلف العسقلاني حدثنا عبد الله بن يوسف يعني التنيسي حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عتبة عن أسد بن وداعة : أنه كان يخرج من منزله فلا يلقي يهودياً ولا نصرانياً إلا سلم عليه فقل له : ما شأنك تسلم على اليهودي والنصراني ؟ فقال : إن الله تعالى يقول : { وقولوا للناس حسناً } وهو السلام قال : وروي عن عطاء الخراساني نحوه (قلت) وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام والله أعلم